مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 11 / العدد: 01 (2023)، ص: 368-379

محاولة نيتشه اكتساب معنى للحياة

Nietzsche's attempt to find meaning in life

ط. صدام طاهري[1]، إشراف د. حورية منصوري معيز[2]
[1] مخبر التربية والابستيمولوجيا بوزريعة (الجزائر)،
philosophysaddam@gmail.com
[2] كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة تيزي وزو (الجزائر)،
mh582008@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/01/10 تاريخ القبول: 2023/01/16 تاريخ النشر: 2023/03/05

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى سعي نيتشه إلى إنقاذ الإنسانية من حالة اليأس والتشاؤم التي وصلت إليها أوروبا بسبب تدمير النظام القديم للقيم القائم على فكرة الإله الذي أتى محملا بمخاطر بأن أخرج الإنسان أسوأ ما لديه، فتملكته الحيرة فأصبح يتساءل عن معنى الحياة وحقيقة العالم الذي يعيش فيه, خاصة أنه بات يعلم أن الكون ليس مصمما لأجله, فإذا لم يسلك الإنسان طريق المخاطرة سوف يغرق في مهاوي التخلي الرباني الأكثر سوءا في الغياب التام لكل أساس أو قاعدة حياة.

فكانت محاولة نيتشه اعتبار أن هذا الحدث يسمح بآمال كبيرة فهي فرصة عظيمة تتيح لنا المجال لبناء قيم تعبر عن محبة جديدة لهذا العالم وهذه الحياة, فرصة للتحرر من أوهام الميتافيزيقا والتخلص من سلطة الإله باحثا عن الإنسان المتفوق الذي يحكم ذاته ولا يحتاج لمن يمثله في ميادين الحياة.

كلمات مفتاحية: موت الإله، فقدان المعنى، الوجود، الحياة، الإنسان المتفوق.

Abstract:

This article aims at Nietzsche's endeavor to save humanity from the state of despair and pessimism that Europe has reached due to the destruction of the old system of values, which is based on the idea of God who came with risks that man brought out the worst in him. , especially since he now knows that the universe is not designed for him, and if a person does not take the path of risk, he will drown in the abyss of divine abandonment, the worst in the complete absence of every foundation or rule of life.

Nietzsche's attempt was to consider that this event allows for great hopes, as it is a great opportunity that allows us to build values that express a new love for this world and this life.

Keywords: God's death, Loss of meaning, Existence, Life, Superior human being.

***المؤلف المرسل:** صدام طاهري

1. مقدمة

لآلاف السنين كانت فكرة الإله هي محور الثقافة الغربية والأساس الذي تتكئ عليه نظرتها إلى العالم, وقد كانت لتلك الفكرة أهمية خاصة لكونها أساس التفكير الإنساني، فكل المبادئ التي نلتزم بها كانت تقف على أرضية سلطة الإله الذي أكسبنا معنى للحياة والوجود، مما اعتقد الإنسان أنه مركز للوجود وأقدس الكائنات الحية, فأعظم المقطوعات الموسيقية كان الدين مصدر إلهامها، وأعظم عمل فني في عصر النهضة مثل لوحة العشاء الأخير ل ليوناردو دافنشي كانت تتناول مواضيع دينية والعلماء النابغين مثل رينيه ديكارت Rene Descartes وإسحاق نيوتن Isaac Newton كانوا متدينين وكانت المؤسسة الدينية متحكمة بكل أنظمة التعليم, لكن ما أن جاءت الثورات العلمية التي انطلقت في القرن السادس عشر التي قدمت طريقة لفهم الظواهر الطبيعية أثبتت بوضوح أنها أقوى وأفضل من محاولة فهم الطبيعة بالرجوع إلى المبادئ الدينية أو الكتب المقدسة،

حتى تهدّم هذا الأساس فكان حدثا جللا لم تعد أوروبا بحاجة إلى الإله كمرجعية للقيم أو النظام الكوني، بدأ العلم الحديث في شرح العالم بطريقة لم تعد تتطلب مفهوم الألوهية بل أصبح الله فائضا عن الحاجة، مما وضع الناس في مواجهة خطر اليأس أو الشعور بعدم جدوى الحياة.

فموضوع هذه الدراسة محاولة فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche إنقاذ الإنسان الغربي من خطر اليأس من الحياة بعد فقدانه للقيم العليا التي لم تعد قيما، فقد انتشر التشاؤم بين الناس وأعوزهم الجواب على سؤالهم لأنفسهم لماذا هم يحيون ويوجدون، أينما فتشت في الرجل الحديث وجدت انحلالا لا يوصف، ووجدت عجزا مفرطا وفقرا ويأسا وقلقا فالشك إذن والإنكار المطلق هو الطابع السائد لهذه الحالة.

وتأتي أهمية هذا الموضوع أنه راهيني، فقد كان نيتشه سبّاقا للتنبيه إلى خطورة موت الإله God 's death وفقدان القيم كحدث ميز العصور الحديثة وأدى إلى تحويل القيم الإنسانية إلى عدم مطلق أفضى إلى فقدان الإنسان ثقته في الإله وسقوطه في ليل لا نهاية له مما جعله يعيش العدمية nihilism لأن الحداثة modernity قامت بهدم القيم التقليدية دون طرح قيم بديلة فاحتمت بظلال الإله، وبالتالي ألغت الحياة وأفرغتها من قيمتها وحولتها إلى حالة من العدم، هذا الفهم ما ميز التاريخ الغربي حيث أصبح الإنسان وحيدا في الحياة دون هدف ولا غاية، أصبح أساس الثقافة أن لا شيء حقيقي.

أما عن هدف هذه الدراسة محاولة نيتشه اكتساب معنى الحياة وذلك بإعادة الاعتبار الإنسان لذاته، من خلال تحريره من كل الأوهام التي سار عليها العالم، لكي يتيح لنا المجال لبناء قائمة قيم جديدة تعبر عن محبة جديدة لهذا العالم وهذه الحياة، بغية أن يجد إنسان متفوق معرض روحه للفناء في سبيل نجاته.

والإشكالية المحورية التي يمكن حصرها في هذه الدراسة هي كيف كانت مساهمة نيتشه في إنقاذ الإنسان الغربي من خطر فقدان المعنى من الحياة؟ وهل الإنسان المتفوق جدير بأن يكتسب معنى لحياته؟

من خلال استقرائنا للدراسات السابقة اهتم كثير من الباحثين بهذا الموضوع من أمثال بيار هيبر Pierre Heber في دراسته حول "زرادشت نيتشه" وكذلك عبد الرحمن بدوي في تحليله "لفلسفة نيتشه".

أما عن منهج الدراسة نظرا لطبيعة الإشكالية التي تطرحها هذه الورقة البحثية فقد اعتمدنا في دراستنا على المنهج الوصفي بالإضافة إلى المنهج التحليلي النقدي.

2. واقعة اختفاء الإله

ظهرت العبارة لأول مرة في مجموعة نيتشه عام 1882 في كتابه "العلم المرح" لم تكن في إطار احتفالي بل في سياق جنائزي ساخر مخاطب معاصريه على لسان شخصية رجل مجنون يحمل مصباحا ويبحث عن الإله في الشوارع والأسواق "لقد مات الإله ونحن الذين قتلناه كيف لنا أن نعزي أنفسنا ونحن أكبر القتلة؟ إن أقدس وأقوى ما ملك العالم إلى الآن قد نزف دمه؟ أية مراسيم تكفيرية أية ألعاب مقدسة يجب علينا أن نبتكر؟"(فريدريك، 1993، صفحة 132). يصف نيتشه حدث موت الإله كواقعة اختفائه من ثقافتنا، فهو لا يتساءل عن وجوده ولا ينكره, بالتالي ليس تعبير عن رأي شخصي لأن ذلك سيؤدي به حتما إلى السقوط في فخ الميتافيزيقا, إنه يتساءل عن مصير قيم وفكر داما ألفي سنة، إذن وجده جثة هامدة على قارعة طريق الضياع والمال والهيمنة الاقتصادية إنها قارعة طريق القرن التاسع عشر, فبعد عصر التنوير أصبحت فكرة الكون التي تحكمه القوانين الفيزيائية وليست العناية الإلهية حقيقة واقعية، لقد أظهرت الفلسفة أن الحكومات لم تعد بحاجة إلى الالتفاف حول فكرة الحق الإلهي لكي

تكتسب شرعية وجودها وإنما من خلال موافقة أو عقلانية المحكومين، تلك النظريات الأخلاقية الكبرى والمتسقة يمكن أن توجد دون الرجوع إلى الإله، فكان هذا حدثا جللا لم تعد أوروبا بحاجة إلى الإله كمرجعية للقيم أو النظام الكوني بل كانت الفلسفة والعلوم قادرتين على فعل ذلك من أجلنا، دفع هذا التصور إلى إدراك أن الإله لم يمت فقط بل إن البشر قد قتلوه بثورتهم العلمية ورغبتهم في فهم العالم بشكل أفضل.

لهذا فإن موت الإله هو في حقيقة الأمر موت الدين وموت العالم المعقول الأفلاطوني وموت قيم الخير والشر في مجال الأخلاق، مما أدى إلى فناء ثنائية الأعلى والأسفل، المثل والمادة، الروح والجسد، وعلى اعتبار أن الكائن المتعالي هو القاسم المشترك بين الدين والميتافيزيقا والأخلاق، هناك إرادة مشتركة لبخس تقدير عالمنا ورفع قيمة موضع آخر، هذه النظرة الميتافيزيقية متغلغلة في أعماق محيطنا الثقافي وبالتالي شكلت أساس العديد من معتقداتنا التي لا تقبل الجدال فيها.

هذا الازدواج يشكل الملمح الجوهري والأساسي الذي تتميز به ثقافتنا، إنه التعارض بين العالم الأرضي والآخرة الذي يعبر عنه كل واحد في لغته بحيث يتكلم رجل الدين على المقدس والمدنس، والفيلسوف على المحسوس والمثل، على الظاهرة والشيء في ذاته، وعالم النفس بين الروح والجسد، ويعارض العالم الواقع الخام بالقانون الرياضي، وتتلخص كل ثقافتنا هكذا بهذا الحذر حيال كل ما هو مباشر فأن تكون مثقفا إنما هو أن تعرف كيف تبدي كل الحذر المطلوب حيال المعطى، أن ثمة شيئا أكثر أساسية خلف ما وراء (غير مباشر) وكل واحد أكان كاهنا أو فيلسوفا أو عالما يجتهد في ميدان اختصاصه لادراك هذا الماوراء بشكل أفضل (سوفرين، 1994، صفحة 49)

إنها شهادة واقعية يشهد بها كمثقف غربي على انهيار قيمة الإله في الغرب، بما تمثله تلك القيمة من الإيمان بالآخرة الثقافة الدينية انتهت بسبب العلم وتطوراته التي بدلت الإيمان باليقين عند العقل البشري، عصر التنوير أسقط دور الدين في تنظيم المجتمع وكذلك أسقطت دوره في السياسة والتدخل بشؤون الدولة، لم تعد حياة البشرية في عصره منظما حسب ما تقتضيه الأديان، بل اتجه جميع الناس في تنظيم حياتهم على أساس العلم مما أدى إلى انهيار الثقافة الدينية, لذلك أوروبا خرجت من كهفها بعد أن مات الله المؤسساتي ولم تعد برفقته لأنها وجدت مصدر أخلاق جديد، الفلسفة والعلوم قد أضافت منتجعا رصينا لقيمها حتى أنها لم تسترد الله كملهم لطباعها، وإن الله لم يمت فقط بل أن البشر قتلوه بالثورات العلمية، لذلك السبب نحن قتلنا الإله ودينه بعلومنا ومنطقنا، العلم قتل الميتافيزيقا عالم الأحاسيس غلب عالم الخيال، لقد رفضنا قوانين الإلهية وأخلاقياتها، انتهى عصر الآلهة وأديانهم وسقطت الطبقة الدينية التي كانت تنظم حياة البشرية، رجال السلطة لا يمكنهم أن يجذفوا على الإله لدعم مؤسساتهم, إذن لا توجد قوى ميتافيزيقية هائلة في الخارج تحرك العالم نحو التقدم وتتحكم في الحياة البشرية، أو أنها خلقت بنية للمعنى فكل شخص يواجه السخف الممكن لوجوده وحده.

كما أوضح نيتشه أن ادعاءه بأن الإله قد مات لا يتعلق بالمعتقد الديني فقط، فمن وجهة نظره أن قدرا كبيرا من طريقة تفكيرنا المعتادة تحمل في طياتها عناصر دينية لا ندركها، فعلى سبيل المثال من السهل جدا التحدث عن الطبيعة كما لو أنها موجهة أو غائية، وإذا قلنا إن الكون آلة عظيمة فإن هذا التشبيه يستلزم أن هناك من صمم هذه الآلة، ولعل الأهم من هذا كله هو افتراضنا أن هناك ما يسمى بالحقيقة الموضوعية objective truth أي الطريقة التي سيبدو بها العالم من وجهة نظر الإله, ولسنا نقول إنها إحدى وجهات النظر من بين

العديد من المقاربات الأخرى بل وجهة النظر الصحيحة والوحيدة، بالتالي فإن كل المعرفة تنطلق من وجهة نظر محدودة وقاصرة.

لم يكتفي نيتشه بوصف حدث موت الإله بل تساءل عن من قتل الإله تحديدا، فإن المجرم الحقيقي الذي قتل الإله هو الإنسان، لكن أي إنسان هذا الذي قتل الإله وبأي وسيلة؟ بدأ العلم الحديث في شرح العالم بطريقة لم تعد تتطلب مفهوم الألوهية الحية لتحريك أعماله الداخلية، لقد أصبح الله فائضا عن الحاجة.

فقد أحدثت نظرية التطور The theory of evolution للعالم الطبيعة تشارلز داروين Charles Darwin ثورة معرفية كبيرة في سبيل تعريفنا بأنفسنا وموقعنا من هذا العالم، فقد كانت لها نتائج فلسفية مربكة وعميقة للغاية فهي من ناحية تعارض نظرة الخلق المستقل والمباشر والتي تقول بها الأديان، كذلك شددت على أهمية الأدلة التجريبية في التفسيرات البيولوجية، ومن جانب آخر فإنها تنسف غرورنا البشري والذي يجعلنا نعتقد أننا كائنات مميزة ومستقلة عن بقية الكائنات الحية، لقد سبب داروين تغييرا في المنظور حيث أزال فكرة التصميم the design ووضع جميع أشكال الحياة العضوية بما في ذلك البشر تحت وطأة التفكير التطوري بمجرد أن نشر كتابه "أصل الأنواع" 1859 استبدل عمل داروين آلية الانتقاء الطبيعي natural selection بالحاجة القديمة للغائية، ثمة عبارة واحدة فقط في كتاب أصل الأنواع ذكر فيها داروين البشر "سوف يلقى الضوء على أصل الإنسان وتاريخه"(فريدل، 2009، صفحة 176)، بحيث يشكل التفسير الطبيعي الداروينى لظهور البشر فقدانا تاما للتصميم, فلم يحدث تدخل من قوى خارقة مهدت الساحة لميلاد البشرية، فداروين لم يفسر الظواهر البيولوجية المرصودة من منظور المصمم الذكي بل فسرها من منظور مذهب الطبيعانية naturalism وأدى تغيير المنظور إلى تغيرات هائلة في الشبكة

المفاهيمية، منها رفض التصميم وثبات الأنواع والتركيز الشديد على تأثير البيئة على مسار الأنواع.

كما أن الفيزياء الحديثة أخرجت الإله من التفسير الكوني، فقد ارتبط التصور الميكانيكي لدى نيوتن سيادة تصور العليه بمعنى آلي في أرجاء الكون بحيث إذا ظهرت العلة وجب ظهور المعلول، لأن العلاقة بينهما ضرورية وحتمية imperative وقد أدى هذا التصور إلى اعتقاد البعض بأنه من الممكن فهم الكون دون افتراض علة خارجة عنه وأن القوانين الطبيعية هي وحدها التي تتحكم في سير المادة والحوادث, وبالتالي موقف الإنسان قد تغير وتغيرت معه نظرته للكون، إذ لم يعد الكون مع نيوتن مجرد ذلك التفسير الذي يرجع الوجود إلى مصدر خارج عنه، بل صار التفسير النيوتيني واستخدام الميكانيكا استخداما ناجحا في ميادين الطبيعة محاولة لتفسير الظواهر الطبيعية بواسطة التجارب وملاحظتها بصورة موضوعية، وفهمها وفقا للقوانين التي توصل إليها انطلاق من صياغة العلاقات بصورة رياضية، ولذلك من النتائج التي أقرتها الميكانيكا تشكل نظرية الحتمية المطلقة، وبناء على ذلك اعتبر العالم حتميا بصورة مطلقة وأن الفيزياء هي أفضل لغة يمكن التعبير بها عن هذا التصور، فالعلاقات والمعادلات الرياضية هي وحدها التي تمكن من التعبير عن الظواهر والإفصاح عنها وتوصيفها.

هكذا بدا الكون آلة عملاقة تعمل بنظام وتخلو المادة من أي غموض هي الوحدات النهائية لعالم الواقع، وقد عبر بيير لابلاس Pierre Laplace عن هذا الموقف أبلغ تعبيرا بقوله "لو استطاع عقل أن يعلم في لحظة معينة جميع القوى التي تحرك الطبيعة وموقع كل كائن من الكائنات التي تتكون منها، ولو كان ذلك العقل من السعة بحيث يستطيع إخضاع هذه المعطيات للتحليل لاستطاع أن يعبر بصيغة واحدة عن حركة أكبر الأجسام في الكون وعن حركات أخف الذرات وزنا، ولكان علمه بكل شيء علم أكيد ولأصبح المستقبل أمام ناظريه كالحاضر

تماما"(بول، 1994، صفحة 78), قول لابلاس أن هذا العالم ليس بحاجة إلى قوة غيبية لكي يشتغل, فلو هيأت لنا المعرفة المناسبة لكل ظروف هذه اللحظة التي نعيشها لاستطعنا أن نحسب بدقة تامة ما سيحدث بعد زمن معين, وبالتالي لا يحتاج لابلاس الإله الذي يزعم المؤمنون به أنه يعرف كل شيء وأنه سبب كل شيء, فنحن بالعلم قادرون على التفسير والتحليل والمعرفة الكاملة، هذا النمط من التفكير كان يعرف في عهد الفيزياء الحديثة بنمط التفكير الخطي Linear thinking بمعنى أن الحياة كلها عبارة عن معادلات دقيقة جدا تفسر هذا العالم وفقا للتفسير الميكانيكي للعالم الذي أسسه إسحاق نيوتن.

3. حالة اليأس والتشاؤم

إن ردة الفعل الأولى ستكون مربكة ومرعبة فقسم المجنون المذكور آنفا مليء بالأسئلة المخيفة، إن الانحدار إلى الفوضى ليس إلا أحد الاحتمالات "ولكن كيف فعلنا ذلك؟ كيف كان بمقدورنا أن نفرغ البحر؟ من أعطانا الإسفنجة لمحو الأفق بأكمله؟ ماذا فعلنا بإبعادنا هذه الأرض عن شمسها؟ إلى أين تسير الآن؟ إلى أي شيء تقودنا حركتها؟ أبعيدا عن كل الشموس؟ ألم نسقط في منحدر طويل؟"(فريدريك، العلم المرح، 1993، صفحة 132)

موت الإله ليس شيئا جيدا تماما فبدونه كان النظام العقائدي الأساسي في أوروبا معرضا للخطر "عندما نتخلى عن الديانة المسيحية يكون علينا أن نتخلى أيضا عن الحق في الأخلاق المسيحية، غير أن هذا الأمر ليس بديهيا على الإطلاق: وعلى المرء أن يظل يكرر طرح هذه المسألة إلى النور... إن المسيحية نظام ورؤية كلية ومتكاملة للعالم، إن نحن انتزعنا فكرة أساسية منها: الإيمان بالإله نكون قد حطمنا الكل, لن يكون بين يدينا من بعدها شيء ضروري"(فريدريك، غسق الأوثان، 2010، صفحة 103)

إن تدمير النظام القديم قد أتي محمل بمخاطرة بأن أخرج الإنسان أسوأ ما فيه، إذ أصبح يعلم أن الكون ليس مصمما لأجله وتساءل عن معنى الحياة من دون وجود الإله، بات الإنسان يعتقد بأنه تطور من كائن وحيد الخلية unicellular ويظن أنه عرف أخيرا حقيقة العالم الذي يعيش فيه، وقد تقوده هذه المعرفة إلى التشاؤم "ألم نسقط في منحدر طويل؟ وذلك إلى الخلف، إلى الجانب، إلى الأمام، في كل الاتجاهات؟ أما يزال هناك أعلى وأسفل؟ ألسنا نتيه كما لو كنا عبر عدم مطلق؟ ألسنا نشعر بأنفاس الفراغ في وجوهنا؟ ألم يزدد الجو برودة؟ أليس الوقت ليلا باستمرار ويصير ليلا مرارا وتكرارا؟ ألا يجب أن نوقد الفوانيس أثناء الصباح؟ هل ما زلنا نسمع شيئا من ضجيج حافري القبور الذين دفنوا الإله؟"(فريدريك، العلم المرح، 1993، صفحة 132), موت المعنى ما خشيه نيتشه من أن التوصل لهذا الفهم للعالم سيؤدي حتما إلى حالة اليأس، وقد ظهر خوفه من العدمية ورد فعلنا عليها في "إرادة القوة" عندما كتب "ما أرويه لكم هنا هو تاريخ القرنين الآتيين أصف ما سيأتي ما لن يأتي مخالف لما أقوله: إنه تنامي العدمية... حضارتنا الأوروبية بأكملها تهتز منذ أمد طويل تحت ضغط يصل حد التعذيب وغم يكبر من عقد لآخر، وكأنها تريد أن تتولد عنها كارثة: قلقة وعنيفة، أشبه ما تكون بنهر يريد بلوغ مصبه لم تعد تفكر بل أصبحت تخشى التفكير"(فريدريك، إرادة القوة، 2011، صفحة 7)

لم يكن نيتشه مندهشا من الأحداث التي ابتليت بها أوروبا في القرن العشرين، الشيوعية والنازية والقومية والأيديولوجيات الأخرى التي شقت طريقها عبر القارة العجوز في أعقاب الحرب العالمية الأولى والتي سعت إلى تزويد الإنسان بالمعنى والقيمة كعامل بلوريتاري أو كمواطن من الجنس الآري، بطريقة مشابهة للطريقة التي يمكن أن توفر بها المسيحية معنى ابن الإله، وتعطي الحياة على الأرض قيمة بعلاقتها مع السماء وفي حين أنه ربما رفض هذه الأيديولوجيات،

فمما لا شك فيه أنه كان سيقر بالحاجة إلى المعنى الذي قدمته وهناك أحوال نفسية ثلاث ينشأ عنها هذا التشاؤم واليأس:

خداع في أن للوجود غاية ومعنى معينا, فحينما يحاول الناس أن يجدوا في الوجود المتطور معنى معينا، ليس موجودا فيه ينتهي أمرهم إلى فقدان قوتهم وإلى عزيمتهم وإلى أن ييأسوا وينكروا كل القيم، لكن لا يلبث أن يكتشف أنه كان واهما في افتراض وجود هذا المعنى، ويتبين أنه كان مخدوعا حين أراد أن يجد غاية وليس ثمة غاية وغرض وليس هناك من غرض آخر خارج عنه، وحينئذ يشعر بخجل أمام نفسه وسواء أكان هذا الغرض غرضا معينا محدودا أم كان الأغراض التي وضعتها الإنسانية جميعا، فالخداع فيهما جميعا ينتهي بالمرء إلى الإنكار: إنكار كل قيمة للوجود وكل معنى للتطور والحياة (بدوي، 1975، صفحة 156)

خداع في أن بالوجود وحدة تامة ونظاما, يكون إذا اعتقد المرء بأن التطور وأحداث الوجود كلها تكوّن كلا واحدا منظما يسير على سياق منطقي خاص كما فعل فريدريك هيجل Friedrich Hegel ولكن هذا الكل المزعوم لا وجود له في الواقع، فيشعر بأنه قد خدع في وحدة للوجود, ولما كان يعلق على هذه الوحدة كل قيمة للوجود فإنه سرعان ما ينكر قيمة الوجود ومن هنا ينشأ الإنكار (بدوي، 1975، صفحة 157)

خداع أن هذا الوجود باطل وأن هذه الحياة أوهام, فيذهب من بعد ساع وراء عالم آخر غير هذا العالم يعدّه العالم الحقيقي، لكن يخيل إليه من بعد أنه خدع ويسلم بأن الوجود الواقعي هو الوجود الوحيد ويحول بين نفسه وبين أن تفر إلى عوالم أخرى... ومع هذا فلا يستطيع أن يحتمل هذا العالم الذي لم يعد يريد إنكاره بعد (بدوي، 1975، صفحة 158), حينئذ لامناص أمام الإنسان من إحدى خصلتين: فإما أن يطرح هذا العالم الآخر وراء ظهره بوصفه خرافة ووهما وهنا يتبدد أمله ولن يعود شيء ذا قيمة في نظره، أو ينكر الوجود الواقعي ومعنى

هذا أن ينكر نفسه ولا يصبح له قبل بالحياة أيا كانت، وعلى كل حال فسواء انتهى إلى نتيجة الأولى أم الثانية فهو واصل إلى الإنكار المطلق: الأول إلى إنكار كل القيم والثاني إلى إنكار قيمة الحياة (بدوي، 1975، صفحة 158)

4. الإنسان المتفوق طريق لاكتساب المعنى

الحالة من الإنكار المطلق التي وصلت إليها أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر، لم يعد الناس يؤمنون بشيء ولا يجدون قيمة في أي شأن من شؤون الحياة والوجود فتملكهم اضطرابا في النفس وشك في التفكير، وكان التشاؤم وإنكار الحياة هما الطابع الغالب على تفكيرهم ونظرتهم في الوجود، نظر نيتشه إلى هذه الحالة اليائسة واعتبر أن العالم قد سار حتى الآن على أوهام واعتمد على قيم باطلة, فكانت النتيجة أن انتهى إلى هذا المصير المحزن فلنحاول أن ننقذ الإنسانية, فموت الإله يسمح بآمال كبيرة فهي فرصة عظيمة حيث يتيح لنا المجال لبناء قائمة قيم جديدة تعبر عن محبة جديدة لهذا العالم وهذه الحياة، فرصة للتحرر من أوهام الميتافيزيقا وإشراقة أفق جديدة والتخلص من سلطة الإله "في الواقع إننا نحن الفلاسفة نحن العقول الحرة عند سماع خبر أن الإله القديم قد مات نحس وكأن أشعة فجر جديد قد لمستنا: يفيض قلبنا لهذا الخبر بالدهشة، بالتوجس، بالانتظار، ها هو ذو الأفق صاف من جديد وإن لم يكن صافيا تماما، ها هي ذي سفننا حرة في استئناف سباقها مهما كلفها الأمر، ها هي ذي كل جرأة المعرفة قد سمح بها والبحر بحرنا، ها هو ذو مفتوح من جديد ربما لم يكن هناك أبدا بحر مفتوح بمثل هذا الشكل"(فريدريك، العلم المرح، 1993، صفحة 204)

كان على نيتشه متمثلا بالحكيم زرادشت أن يبحث عن الإنسانية المتفوقة، فلم يجد من يسمعه بين القطيع فيحسبونه تارة مهرجا يقدم عرضا فكاهيا وتارة يرونه ثملا لايعرف ما يقول، وكأن الناس صموا آذانهم إلا على موسيقى القطيع وسيمفونية الرغبة الواحدة، لقد كان دأبه أن يجد إنسان متفوق خارج عن قانون

القطيع معرضا روحه للفناء في سبيل نجاة هذا الإنسان يقول زرادشت مخاطبا الحشد قائلا "إنني آت إليكم بنبإ الإنسان المتفوق، فما الإنسان العادي إلا كائن يجب أن نفوقه فماذا أعددتم للتفوق عليه؟"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 6)، إن الإنسان المتفوق لا يظهر إلا بعد موت الميتافيزيقا في هذه اللحظة تتضح إمكانات الإنسان بحرية، والواقع أن الفرق بينه وبين الإنسان العادي يتجلى في نظرة كل واحد منهما إلى الحياة، الإنسان العادي صنع عالم آخر فأصبح تعيسا به أما الإنسان المتفوق فقد قتل هذا العالم لصالح الإرادة، الإنسان العادي أصبح ثقيلا بالقيم على عكس الثاني ينشد الخفة من القيم, وبالتالي الإنسان العادي ما هو إلا شيء وجب تخطيه, إن حالة اليأس التي وصلت إليها أوروبا في القرن التاسع عشر تسببت فيها الميتافيزيقا أفقدت تلك العلاقة المتبادلة بين الإنسان والحياة، فبات الإنسان يعيش تحت وطأة عالم آخر مبتعد عن عالمه الحقيقي حيث الاحتفال بالحياة والقيم السادة التي تنشد التفوق الخلاق إلى عالم الخضوع والجبن والتسليم للقدر.

يتبع الإعلان عن الإنسان المتفوق مباشرة تلميحا إلى نظرية داروين في النشوء والارتقاء "إن كلا من الكائنات أوجد من نفسه شيئا يفوقه، لقد اتجهتم على طريق مبدئها الدودة ومنتهاها الإنسان غير أنكم أبقيتم على جل ما تتصف ديدان الأرض لقد كنتم من جنس القرود فيما مضي، على أن الإنسان لم يفتأ حتى اليوم أعرق من القرود في قرديته"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 6)، لم تكتف نظرية التطور بنظرتها إلى تطور الإنسان بل تجاوزت ذلك إلى تطور كل الموجودات بما فيها الطبيعة، وبما أن الميتافيزيقا لا تنتج إلا التشابه بدل الاختلاف والطبيعة لا تقبل هذا التشابه، فإن الإنسان وجب أن يتطور بدوره في علاقته بالحياة، وبما أن سبب هذا الجمود مرده إلى القيم فقد وجب قتل علة هاته القيم, هنا يتكلم نيتشه عن صفات الإنسان المتفوق المبدع والمجدد في كثير

من المواضيع ويبين أنه لن يحظى إلا بالعداء والاتهامات، ويقول بأن من واجبه مساعدة الآخرين على الخروج عن القطيع، لأنه لا يسعى لتكوين قطيع هو الآخر ولا يريد أن يكون راعا هو الآخر "إنني بحاجة إلى رفاق أحياء لا إلى رفاق أموات وجثث أحملهم إلى حيث أريد، إنني أطلب رفاقا أحياء يتبعونني لأنهم يريدون أن يتبعوا أنفسهم أيان توجهت، إنني ما جئت إلا لأخلص خراف عديدة من القطيع وسوف يتمرد الشعب والقطيع علي"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 15)

فالإنسان المتفوق هو الذي يحكم ذاته ولا يحتاج لمن يمثله في ميادين الحياة من مدعين بأنهم ممثلو الشعوب كحشرات المجتمع، إن نجاة هذا الإنسان تكون في ضمور صلاحيات هؤلاء، وبالتالي فلا يمكن أن يحيا الإنسان المتفوق إلا إذا تخلى عن تأليه الميتافيزيقا وعن اعتبارها الموجه الرئيسي لحياة الفرد، وأن يحطم أصنام العقل المحركة لعجلة الحياة فينجو بنفسه هاربا من الآفات السائدة لدى القطيع، فهو ليس بحاجة لمن يملي عليه القوانين لأنه لن يجد نفسه إلا في فناء أصنام العقل، حتى أن نيتشه ذاته يطالب الملأ أن يبحثوا عن ذواتهم بعيدا عن كنفه لأن أشد إساءة للمعلم أن يبقى التلميذ تلميذا إلى الأبد "آمركم الآن أن تضيعونني لتجدوا أنفسكم ولن أعود إليكم إلا عندما تكونوا جحدتموني جميعكم لقد ماتت جميع الآلهة، فلن يعد لنا من أمل إلا ظهور الإنسان المتفوق"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 15)

4. الإخلاص للأرض والجسد

حاول نيتشه أن ينسف كل القيم التي أفرزتها التقاليد الفلسفية والدينية، والتي وضعت العقل تاجا لتحقيق سيادتها المطلقة إنه يعد فيلسوف القلب بل هو نفسه يرى هذا دون مجاملة "قلب كل القيم تلك هي صيفتي المبجلة للتعبير عن أرقى وعي ذاتي للإنسانية، وأن أعي نفسي كنقيض لأكاذيب آلاف من

السنين"(فريدريك، هذا هو الإنسان، 2006، صفحة 154)، بالتالي يهوي بمطرقته على كل تفكير ديني وكل فلسفة مثالية ليحاكم كليهما، فرأى أن الفلسفة المثالية هي حتى الآن سوى نوع من المرض، كل تفكير متعال حلق بعقله إلى السماء ولم يلتفت إلى الأرض، كل تفكير مفارق يتعالى فيستعلي على الحياة إنها جريمة فكر قتل عالم الأرض صنعه زيف الخيال، فسواء المسيحية أو الفلسفات المثالية بتمييزها بين عالم علوي وعالم سفلي أرضي متغير لا يعبر إلا عن تفكير منحط "إن تقسيم العالم إلى حقيقي وعالم ظاهري لا يمكنه أن يصدر إلا بإيعاز من الانحطاط، ولا يمكن أن يكون إلا علامة حياة آفلة"(فريدريك، أفول الأصنام، 1996، صفحة 32), ولذلك يؤكد على أن الإنسان يجب أن تكون له العزة وأن يهتم بالحياة "لقد علمتني ذاتي عزة جديدة أعلمها الآن للناس: علمتني ألا أخفي رأسي بعد الآن في رمال الأشياء السماوية، بل أرفعها رأسا عزيزة ترابية تبتدع معنى الأرض"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 21)، لأن من لا يهتم بالأرض لن يعمرها ولن يقدم شيئا للإنسان في الواقع بل يبيع له الوهم في مكان لا ندركه "أتوسل إليكم أيها الإخوة بأن تحتفظوا للأرض بإخلاصكم فلا تصدقون من يمنونكم بآمال تتعالى فوقها إنهم يعلونكم بالمحال فيدسون لكم السم، سواء اجهلوا أم عرفوا ما يعملون أولئك هم المزدرون للحياة، لقد رعى السم أحشاءهم فهم يحتضرون لقد تعبت الأرض منهم فليقلعوا عنها"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 6)

إن تجاوز ثنائية الروح والجسد إلى أحادية الجسد تتأسس على البعد البيولوجي يصير به الإنسان مثله مثل كل سائر الحيوانات، هذا الطرح يراه نيتشه تصحيحا لكل الفلسفات التي نظرت إلى الإنسان نظرة متعالية يملؤها الغرور "لقد أعدنا تصحيح المفاهيم لقد عدنا متواضعين في كل الحقول، إننا لم نعد نشتق الإنسان من الروح ومن الألوهية وإنما صرنا نضعه بين الحيوانات"(فريدريك، عدو

المسيح، 2012، صفحة 116)، فها هو الإنسان هو ذلك الجسد الذي يظهر أمامنا كأجساد الحيوانات، لكنه يراه الحيوان الأقوى والأدهى من كل الحيوانات "لكننا نعده الحيوان الأكثر قوة، ذلك أنه الأكثر دهاء"(فريدريك، عدو المسيح، 2012، صفحة 116) فالجسد هو التركيبة الجوهرية للإنسان أولا وقبل كل شيء، إذ هو أساس بناء الذات الإنسانية التي تعيش على هذه الأرض "يا إخوتي فأصغوا إلى صوت الجسد الذي أبل من دائه، لأن هذا الجسد يخاطبكم بصوت أنقى وأخلص من تلك الأصوات"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 21), لقد كانت ثنائية الروح والجسد تراتبية اللاهوتيين والفلاسفة المثاليين قد وضعوا الروح في أعلى درجة من الجسد، فيفسر احتقارهم للجسد وإرادة إماتته بأنهم غير قادرين على تحقيق مطامحهم، فهذا يتمنون الموت لأجسادهم، وامتدت نظرة الاحتقار إلى الجسد باعتباره حاملا للنجاسة والغرائز المفسدة "لقد كانت الروح تنظر فيما مضى إلى الجسد نظرة الاحتقار، تتمنى الجسد ناحلا قبيحا جائعا متوهمة أنها تتمكن بذلك من الانعتاق منه ومن الأرض التي يدب عليها، وما كانت تلك الروح إلا على مثال ما تشتهي لجسدها ناحلة قبيحة جائعة تتوهم أن أقصى لذتها إنما يكمن في قسوتها وإرغامها"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 6)

ففلسفة الجسد عنده تنسف بتلك الثنائية التراتبية القائمة على تعالي الروح على الجسد باعتبار الأولى جوهرا والثاني عرضا، حيث أصبح الأمر عنده معكوسا فالجسد هو الجوهر هو الأصل وما الروح أو النفس أو العقل إلا عرض غير مستقل بذاته ومتعلق بالجسد "إنني بأسرى جسد لا غير، وما الروح إلا كلمة أطلقت لتعيين جزء من هذا الجسد"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 25)، ولذلك ينعت نيتشه البدن بأنه عقل عظيم وما العقل إلا أداة أو لعبة صغيرة له "إن آلة جسدك إنما هي أداة عقلك الذي تدعوه روحا أيها الأخ إن

هو إلا أداة صغيرة أو ألعوبة صغيرة لعقلك الكبير"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 25)، فالجسد ما هو إلا الوجود المادي الظاهر للأنا الباطن المتخفي "هذا الجسد لا يتبجح بكلمة أنا لأنه هو أنا هو مضمر الشخصية الظاهرة، فإن وراء إحساسك وتفكيرك يا أخي يكمن سيد أعظم منهما سلطانا لأنه الحكيم المجهول، وهذا الحكيم هو الذات بعينها المستقرة في جسدك وهي جسدك بعينه أيضا"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 25)، ولذلك دفاع نيتشه عن الجسد هو أيضا دفاعه عن أجزائه العضوية المتمثلة في الحواس كجانب عضوي حسي فيزيولوجي مادي يفصح عن معنى الأرض، فهي التي تكشف عن تغيره وصيرورته وبالتالي هي التي تقول الحقيقة "وما دامت الحواس تكشف عن الصيرورة عن اللاثبات، عن التحول، فإنها لا تكذب"(فريدريك، أفول الأصنام، 1996، صفحة 26)، فهي على خلاف العقل الذي أوهمنا بأفكار خاطئة عن العالم الذي نعيش فيه مما وسع الخلاف بيننا أكثر فأكثر فلا يجب أن نصدقه، وأعتقد أن الأفكار أشد فتنة من الحواس، فالحواس لم تخدعنا لأنها بينت لنا أن العالم في تغير دائم، والتغير يوحي بوجود تاريخ للعالم وإضفاء التاريخية على العالم افتقر إليها عقل الفلاسفة كونه كان متعاليا على العالم ومتعاليا على الحواس أيضا، وبهذا فإن أدوات التفكير والتأثر ومشروعيتها ليست روحانية أبدا فهي مادية عضوية نابعة من الجسد.

لذلك يرى أن في اعتراضه على موسيقى صديقه ريتشارد فاغنر Richard Wagner هو في الحقيقة اعتراض حواسه على ذلك حيث لم تستسغها "إن اعتراضي على فاغنر اعتراضات فيزيولوجية، أتنفس بصعوبة ما أن يبدأ موسيقاه بالتأثير على قدمي، تحقد عليه وتثور وتشعر قدمي بالحاجة إلى إيقاع الحاجة إلى الرقص والسير"(فريدريك، العلم الجذل، 2001، صفحة 228) فردود العقل السلبية والإيجابية تعبر عنها مناطق جسمية وليست تعبيرا فكريا تجريديا، إنما

نطلبه من الموسيقى هو قبل كل شيء الانعطاف الذي توحي به لطافة المشي والخطو والقفز والرقص، ومعدتي أن لا تعترض هي أيضا (فريدريك، العلم الجذل، 2001، صفحة 228)، بل ويرجع نيتشه نسبة التفكير والعبقرية إلى الحواس، فها هو يشيد بقدرة الأنف التي أهملها الفلاسفة فهو يقول "هذا الأنف مثلا لم يسبق فيلسوفا أن تحدث عنه بتوقير وامتنان، قادر على أن يتبين في الحركة أدنى الاختلافات التي لم يكتشفها مطياف"(فريدريك، أفول الأصنام، 1996، صفحة 27), إنه يعبر عن عبقرية إحساسه التي مكنته من أن يكون أول من اكتشف الحقيقة "إنني أول من اكتشف الحقيقة لأنني استطعت أن أرى إلى الكذب، ككذب اشتممته عبقريتي في أنفي"(فريدريك، هذا هو الإنسان، 2006، صفحة 154)

لقد أحب نيتشه الحياة ورأى أننا ما وجدنا إلا لنحيا لأننا أجدر بأن نحيا ونعيش، فهو يقولها صراحة "نعم الحياة تستحق العيش، نعم أنا جدير بأن أعيش"(فريدريك، العلم الجذل، 2001، صفحة 33), وحياة الإنسان لا تكون خارج هذا الوجود هذا العالم الظاهري بل داخله, لأن هناك تلك العلاقة الدالة على صداقة بديعة بين هذا الجسد والكون، فالعقلانيون بأحكامهم أقاموا جريمة قتل ومجزرة لكل ما هو دنيوي حي بأحكامهم وقتلوا حتى الحقيقة فلا شيء حقيقي خرج حي من بين أيديهم، ولذلك العالم الحقيقي هو العالم الظاهر إنه هذا الذي أمامنا أمام حواسنا الذي يحتوينا إنه الأرض، ويتجاوز ثنائية العالم الحقيقي المفارق والعالم الظاهر إلى أحادية العالم وهو هذا العالم الذي نحيا فيه.

5. خاتمة

في ختام هذا البحث نخلص إلى جملة من النتائج نعرضها فيما يلي: محاولة نيتشه أن يكتسب الإنسان معنى لحياته عليه أن يمتلك المرء روحا حرة، وأن يتغلب على القوى الهائلة للتماثل التي توجد في أعماقنا، وأن يقف ضد القطيع

وقواعده، وأن يدرك قوى الطبيعة وأحداثها ويفهم واجب الحياة الثقيل ويقبل هذا كله في شجاعة وعزيمة.

العالم سار حتى الآن على أوهام واعتمد على قيم باطلة فكانت النتيجة أن انتهى إلى هذا المصير المحزن الذي انتهى إليه فلنحاول أن ننقذ الإنسانية، ولن نبحث عن سلطة أخرى تتكلم لغة المطلق وتفرض غايات ومهام الخضوع والاستسلام.

لا يوجد أي حل وسيط، أي مخرج تستحيل محاولة التصرف كما لو كان الإله لا يزال موجودا يجب وعي ذلك، فإما إلغاء أوهامنا المقدسة وإما القضاء على أنفسنا، نحن لم نضيع كل شيء بعد ما زال هناك مجال حياة للأنفس العظيمة، فقط ما زال لدينا شيء من الفوضى في داخلنا.

إلغاء الآخرة هبة في الواقع يزيح حملا، إنه تحرير الإنسان الذي تستعبده هذه الآخرة وإعادة الاعتبار لذاته وإرجاع الشرف المفقود إليها.

الإنسان المتفوق جدير بأن يكتسب معنى لحياته وسيفهمها المبدعون، تجعلنا نكوّن رؤية جديدة لهذا العالم غير ثنائية ميتافيزيقية, بل هذا العالم الفيزيائي المتغير وكل شيء حقيقي يجب أن يخرج من أيدينا، وليس بحاجة لمن يملي عليه القوانين، يجب أن يحتفظ بخصوصياته الفردية وبقدراته على التفكير الحر، يسعى إلى الوحدة وهي إحدى الثوابت الأساسية في فضائل المفكر الحقيقي، والتوحد هو عزلة المفكر لا عزلة الناسك أو الراهب الذي يرفض الدنيا وينسحب منها وهذا الانفصال عن الآخرين (القطيع) ضروري ، لأن كل رفقة تجعل الإنسان بطريقة ما منصهرا ومتشابها وبالتالي خاضعا، أي يدفعه للابتعاد عن البحث عن كل ما هو نادر ونبيل.

وأخير كاقتراحات لا بد من أن يعود التفكير في النمط الثقافي العربي للأرض والحياة، لأن من لا يهتم بها لن يعمرها ولن يقدم شيئا للإنسان في الواقع، بل يبيع

له الوهم في مكان لا ندركه، وبالتالي علينا العيش في الأرض والإقبال على الوجود والمساهمة فيها واكتساب معنى لحياتنا بدل العيش كضيوف.

6. قائمة المراجع:

1. بول، موي. (1994). *المنطق وفلسفة العلوم*. ط1، ترجمة: فؤاد زكريا، القاهرة، مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
2. بيار هيبر، سوفرين. (1994). *زرادشت نيتشه*. ط1، ترجمة: أسامة الحاج، بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
3. عبد الرحمن، بدوي. (1975). *نيتشه*. ط5، الكويت: وكالة المطبوعات.
4. فاينرت، فريدل. (2009). *كوبرنيكوس وداروين وفرويد: ثورات في تاريخ وفلسفة العلم*. ط1، ترجمة: أحمد شكل، القاهرة، مصر: مؤسسة هنداوي
5. فريدريك، نيتشه. (1938). *هكذا تكلم زرادشت*. ط1، ترجمة: فيليكس فارس، الإسكندرية، مصر: مطبعة جريدة البصير.
6. فريدريك، نيتشه. (1993). *العلم المرح*. ط1، ترجمة: حسان بورقبة ومحمد الناجي، الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق.
7. فريدريك، نيتشه. (1996). *أفول الأصنام*. ط1، ترجمة: حسان بورقبة، الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق.
8. فريدريك، نيتشه. (2001). *العلم الجذل*. ط1، ترجمة: سعاد حرب، بيروت، لبنان: دار المنتخب.
9. فريدريك، نيتشه. (2006). *هذا هو الإنسان*. ط1، ترجمة: علي مصباح، كولونيا، ألمانيا: منشورات الجمل.
10. فريدريك، نيتشه. (2010). *غسق الأوثان*. ط1، ترجمة: علي مصباح، كولونيا، ألمانيا: منشورات الجمل.

11.فريدريك، نيتشه. (2011). *إرادة القوة*. ط1، ترجمة: محمد الناجي، الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق.

12.فريدريك، نيتشه. (2012). *عدو المسيح*. ط2، ترجمة: جورج مخائيل ديب، اللاذقية، سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.